تأثير وسائل الإعلام
في طبيعة الإنتاج الثقافي العربي

فوزي البشتي

مدخل

يطرح الحديث عن الاعلام والثقافة، والصلة بينهما، قضية قديمة تناولها كثير من الكتاب بمداخل مختلفة، ومناهج متفاوتة، لكنها ظلت رغم اهميتها تحتاج الى تناول اعمق يكشف كل جوانبها، ويطرح جميع اشكالياتها ويحدد ابعادها ومنطلقاتها، ويتقصى تأثيراتها ويتتبع بداياتها ويتوقف عند اهدافها وتوجهاتها ومراميها، فما من شك ان الجانب الاعلامي في الادب العربي ظل مسيطرا سيطرة كاملة، يوجه الابداع ويغير مساراته ويرغم الاديب على الاتجاه نحو مسارب اخرى لا تجعله يهتم بعمله الابداعي كانجاز فني بقدر ما يهتم بارضاء «الآخر» الذي يكون في اغلب الاحوال، حاكما او قبيلة او مؤسسة سياسية من المؤسسات، حيث يذوب صوت الشاعر وتنمحي شخصيته ويصبح مجرد اداة توصيل لأفكار الاخرين ووجهات نظرهم.

الشعر كاداة اعلامية

ولعلنا نستطيع القول ان هذه الظاهرة التي واكبت الثقافة العربية منذ العصر الجاهلي، هي التي ادت الى شيوع الرأي الذي يؤكد ان الشعر الجاهلي في جملته لم يصدر فيه الشاعر عن ذاته ولا عبر به عن واقع حياته، بل جعله ترجمانا لاهواء قبيلته وميولها، ونصيرا لقضاياها السياسية والاجتماعية[1].

ويقولون ان هذه الظاهرة لم تكن بدعا من الظواهر، وانما كانت ثمرة عوامل مختلفة، تضافرت على ايجادها وعملت على تنميتها، اشهرها: انهم عاشوا في ظل نظام قبلي اقتضى ان ينضوي ابناء كل قبيلة تحت لوائه وان يستجيبوا لسيدهم، وأولي الأمر منهم، وان يتعاونوا من اجل العمل لصالح القبيلة، وسحق المعتدين عليها حفاظا على وجودهم وضمانا لاستمرار حياتهم، ذلك ان هذه القبائل كانت اشبه بكتائب عسكرية، غلبت على نفوس ابنائها النزعة الحربية فهم دائما متأهبون، مستعدون وكأنهم في حالة طوارئ مستمرة كما يقولون - اما للغزو واما لصدّ المعتدين.

واذن فمن الطبيعي ان يذوب الفرد في الجماعة في ظل تلك النظم والاخطار، وان تتوارى شخصية الشاعر في شخصية قبيلته، بحيث لا يعود له كيان غير كيانها ولا حياة غير حياتها ولا لسان غير لسانها. واعتمادا على هذه المقدمات، واستئناساً بها، بني الدارسون المحدثون نتائجهم التي انتهوا اليها، من ان الشاعر الجاهلي كان يدور في فلك قبيلته، لا يخرج عنه ولا يجد خلاصا منه، فهو دائما مشدود اليها، مشغول بقضاياها لا يجد فرصة يعبر بها عن مشاعره وخواطره سوى ما اتيح له من حيّز ضيق في صدور قصائده، تحدث فيه عما يعتمل في نفسه من التفكير في مشاكل الكون والحياة او الارتداد الى ماضيه وذكرياته مع احبابه ومحبوباته.

ومعنى ذلك ان القصيدة الجاهلية ظلت باستمرار تراعي هذا التقسيم الذي يفرد فيه الشاعر جزءا من قصيدته للحديث عن تجربة من تجاربه، لكنه ما ان يشرع في تعمق هذه التجربة، حتى يتذكر ان غرضه من انشاء قصيدته، هو شيء آخر، غير الحديث عن تجاربه الشخصية، فينتقل الى الاغراض الاعلامية للشعر العربي ليمدح ملكا ويهجو آخر او ليدافع عن قبيلته ويقلل من قيمة الأخرى.

ومن المحقق أن الشاعر الجاهلي لعب دورا مهما في المجتمع الجاهلي، فقد كان سفير قومه عند الملوك ورؤساء القبائل، على نحو ما نعرف عن سفارات النابغة الذبياني، لقومه عند المناذرة والغساسنة، كان الشاعر مندوب قومه المتنقل بين القبائل وشفيعهم في اسراهم... وما اكثر ما استشفع الشاعر لأسرى قبيلته على نحو ما نعرف من استشفاع (علقمة بن عبده) لأخيه (شأس) وسائر الأسرى من قومه عند الحارث بن ابي شحر الغساني[2] وعلى نحو ما نعرف من استشفاع (حاتم الطائي) لقيس بن حجدر، جد الطرماح بن حكيم، عند عمرو بن هند[3] وكان الشاعر الجاهلي يحذر قومه ويعظهم ويرشدهم اذا انحرفوا عن جادة القصد او جاروا على اخوانهم او حاولوا الخروج من حلف لهم مع غيرهم، كما كان يخوف اعداء قومه ويهددهم ويتوعدهم بسوء العاقبة اذا هم حاولوا غزوهم. والى جانب ذلك تمتّع الشاعر بمكانة ممتازة، اذ حرص الأشراف على إرضائه أملاً في مدحةٍ ترفعهم وتنوه بقوتهم وعزتهم خوفا من هجائه اللاذع المقذع، الذي كانت تسير به الركبان في كل مكان.

وعلى الجملة كان الشاعر الجاهلي، ضابط العلاقات العامة في قبيلته كما يصفه (آربري) او لسان الزمان كما يسميه (خلف الاحمر).

على اننا يمكن ان نلاحظ بان شعراء العصر الجاهلي قد تفاوتوا في قناعاتهم بهذه الرسالة الاعلامية التي كانوا يقومون بها، فمنهم من كان صادقا مؤمنا بأن دوره ينبغي ان يظل محدودا بمنفعة قومه ومصلحتهم، ومن اجل ذلك فان قصائده كلها هي هذا النوع من القصائد التي ترتبط بالعشيرة او القبيلة ليصبح رمزا وعنوانا ووثيقة تؤرخ وتمجد وتفخر وتصرخ وتتوعد وتنبه وتحرض وتنتصر للقيم الفاضلة في نفس الوقت الذي تتخذ فيه موقف المعارضة تجاه ما تراه مهددا لوحدة القبيلة وتماسكها.

والنصوص الشعرية في هذا المجال كثيرة ومتعددة لا تتسع لها هذه الصفحات، ولكننا يمكن ان نقدم نموذجا منها للشاعر (لقيط بن يعمر الايادي) الذي كان كاتبا في ديوان «كسرى» وكان من الممكن ان تكون مكانته عند كسرى كافية لدفعه الى نسيان قومه لو انه كان من هؤلاء الشعراء الذين يؤمنون بان الشعر ليس الا نوعا من التجارة التي يمكن التعامل معها بمعايير المكسب والخسارة، ولقد استحوذ (لقيط) على ما كان بمقدور قومه ان يوفروه له... لكن المسألة في نظره لم تكن بهذا المقياس، فجاءت قصيدته الشهيرة، احدى القصائد التي ارخت لبداية الشعر الذي يصبح انتماء وقضية وارتباطا بالوطن والجذور.

لقد كانت قصيدته رسالة، منشورا تحريضيا، تعبئة للقوى، وشحذا للهمم واستثارة للنخوة وتبصيرا بالموقف.

صونوا جيادكم واجلوا سيوفكم
وجددوا للقسيّ النبل والشرعا
لا تثمروا المال للاعداء انهم
ان يظهروا يحتووكم والتلاد معا
يا قوم ان لكم من ارث أوّلكم
مجدا قد اشفقتْ ان يفنى وينقطعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم
ان ضاع آخره او ذلّ واتضعا
يا قوم لا تأمنوا ان كنتم غُيُراً
على نسائكمُ كسرى وما جمعا
هو الفناء الذي يجتثّ أصلكمُ
فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا
قوموا قياما على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلّدوا امركم - لله درّكمُ
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخى العيش ساعده
ولا اذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم الا ريث يبعثه
هُمُ يكاد سباه يقصم الضلعا
ما انفكّ يحلب هذا الدهر أشطره
يكون متبعا طورا ومتبَعا
وليس يشغله مال يُثمّره
عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

تكفي هذه المقاطع من قصيدة (لقيط) فنحن لسنا في حاجة الى نقلها كاملة، لانني اعتقد ان كل بيت فيها يصلح لان يكون شاهدا يتمثل به لنموذج القصيدة التحريضية.

وماذا يمكن ان تقدم وسائل الاعلام في العصر الحديث أكثر مما قدمه «لقيط» في هذه القصيدة التي تشحذ الهمم وتدعو الى اعلان النفير والتعبئة العامة، على اننا يمكن ان نختصر صرخة «لقيط» في النقاط التالية:

١ - يثق الشاعر بقومه ثقة بلا حدود، ويواصل تحريضه دون يأس حتى حين أحسّ ان قبيلته لم تعر رسائله اهتماما، فهو شاعر صاحب قضية يلح عليها ويتابعها ويرتبط بها.

٢ - ثقة لقيط بالأعرابي الذي سلّمه الرسالة دون ان يعرفه. ان كون الرجل عربياً يكفي، وهذا يعني ان الشاعر تجاوز حدود الارتباط بالقبيلة الى الارتباط بالعروبة لان هزيمة، «اياد» وخسارتها هي خسارة للعرب بالدرجة الاولى، وهذا يعطي لقصيدة «لقيط» اهمية خاصة كنموذج مبكر للشعر القومي.

٣ - أثار الشاعر نخوة قومه، فذكر لهم ما يذكرهم بدناءة الأعداء ويخوّفهم منها ويحذرهم، ثم جعل الشِعر وسيلة لإيصال مشاعره الى قومه.

٤ - لم يكن غامضاً، بل أراد أن تكون قصيدته تقريرية مباشرة، أليست منشوراً يستهدف إيصال المعلومات ومن اجل ذلك نراه يحدد حجم الاعداء وعددهم.

أتاكم منهم ستون الفا يزجّون الكتائب كالجراد
و.....
لو ان جمعهم راموا بهدته ثم الشماريخ من ثهلان لانصدعا

وعند مقارنة بين استعداد العدو للمعركة وتشاغل قومه عنها، وبين حذر العدو وحذر الاصل.... هذه المقارنة ليست للتثبيط وانما للاستثارة والتحريض.

٥ - يرسم لقيط لقومه خارطة المعركة.... تعبئة للقتال. بالعدد والعدة وباختيار القائد المؤهل لتحمل عبء القيادة.

وقد دخل هذا البيت الذي يشير الى ما ينبغي ان يكون عليه القائد، ادبيات الفرس انفسهم.

يذكر (الوشاء محمد بن اسحق النحو) في كتابه (الفاضل في صفة الادب الكامل) نصيحة «ابرويز» وهو في حسبه الى «شيروية» في اختيار الوالي.... «واياك ان تستعمله ضرعا غمرا كثيران اعجابه بنفسه وقلة تجاربه في غيره ويستشد الوشاء بأبيات من قصيدة «لقيط الايادي» تبدأ من:

فقلدوا امركم لله دركم رحب الذراع بامر الحق قدصدعا

أما ابو بكر محمد بن داود الاصبهاني، فانه يذكر في الباب السابع والسبعين للشعراء في التحذير والاغراء ويختار بعض الابيات للقيط[٤].

٦ - يعلن «لقيط انتماءه لابناء ارضه رغم الغربة واغراءات

البلاط او تهديداته، ويموت لقيط شهيدا لقضيته القضية التي تشير الى حمية العربي وميله الى وحدة الصف وتماسكه، وحدة الروح وتألقها حتى لا يكسب العدو جولته ضدنا.. بما يذكرنا بالمبادرات الرائدة في التاريخ » حلف الاحلاف، حلف الدم، حلف الفضول »، المبادرات التي باركتها قلوب العرب قبل الاسلام.

هذا النموذج للقصيدة التي تؤدي دور وسائل الاعلام مجتمعة، تعبىء وتحرض وتوجه، وتنبىء وتقدم المعلومات الكافية لاثراء الموضوع، وتجنح الى المباشرة والتبسيط والتقريرية، لكنها تظل بعيدة عن المباشرة الفجة والتبسيط المخل، بل تحافظ على هذه الصياغة الفنية المتينة التي يصبح فيها النص بمجموعه دفعة شعورية مشبعة بهذا الجو الموسيقي الذي تتوزع فيه الحروف والفواصل والمفردات والتراكيب والبلاغات التحريضية لتشكل « هارموني » ينمّ عن قدرة القصيدة العربية التحريضية في الايصال والاعلام وتأدية الرسالة من خلال الشكل وتوهج الرؤية، ولأن القصيدة خطاب تحريضي فان موضوعها يشكل بنيتها الايقاعية، فتأتي من البحر البسيط « مستفعلن فاعلن - مستفعلن - فعلن » لان ايقاع البسيط اقرب الى المزاج الصحراوي التحريضي، الذي يتطلب حدة الضربة وشدة الصدى لاختلاف نوعية التفاعيل في البحر الواحد.

ويرى البعض ان هذا البحر سمي بالبسيط لانبساط اسبابه او مقاطعه الطويلة، اي تواليها في مستهل تفعيلاته وقيل لانبساط الحركات في عروضه وضربه في حالة خبنهما اذ تتوالى فيها ثلاث حركات، ناهيك عن ان البسيط من البحور الطويلة التي يعمد اليها الشعراء في الموضوعات الجدية[٥].

يضاف الى ذلك فطرة الشاعر وفطنته في الانتقاء فللموضوع الوعر كلمة وعرة وللحظة القلقة مفردة قلقة، وحين يتطلب الامر التلميح يومىء الشاعر ويلمّح، معتمدا، بطاقته الفذة، على اساليب القصيدة النموذج في زمنه.

فثمة افتتاحية طللية غزلية رمزية

يا دار عمرة من محتلها الجرعا
هاجت الى الهم والاحزان والوجعا

وثمة مقابلة في المعاني والصور والمفردات وحتى الحروف، ولم يلجأ «لقيط » الى التقعر والادعاء، لان موضوعه يتطلب المباشرة والوضوح ويهدف الى الوصول الى الناس والتغلغل في اعماقهم واستثارة هِمَمهم.

ولقد اردت ان أتوقف عند هذه القصيدة وأتخذ منها شاهداً ونموذجاً على كثرة شعر الحماسة وقصائد التحريض.. لكنني ارتحت الى هذه القصيدة لانها قصيدة موقف، يتخذه الشاعر... وقضية يجند نفسه للدفاع عنها، والتزام خلقي ووطني وقومي يرتبط به.

فقد كانت حماسيات عنترة وغيره، وصفا وفخرا وتمجيدا للفروسية، وكانت قصيدة « الاعشى ».

وجنـــد كسرى غـــداة الحنو صبحهم
مناغطاريف ترجوالموت وانصرفوا

تمجيدا لانتصار العرب على الفرس يوم (ذي قار) وهي على ما فيها من وثائقية وتسجيلية، لا تتيمز بما تميزت به قصيدة (لقيط) من صدق وانفعال وانتماء.

هل من الممكن ان نعتبر شعر الحماسة نوعا من الخطاب الاعلامي الذي يستهدف تثبيت افكار بعينها في اذهان المتلقين؟

الواقع ان مصطلحات العصر الحاضر تعطي للاعلام معنى اوسع، ولكننا عندما نتحدث عن هذه الفترة المبكرة في حياة الأمة العربية، لا نجد سوى الشعر الذي كان يقوم بما تقوم به وسائل الاعلام الحديثة اليوم، ونظرا للاضطرابات السياسية والحروب بين القبائل سواء منه الحروب التي وقعت في الجاهلية او الفتن والاضطرابات التي ابتدأت بالفتنة الكبرى ولم تنته نجد ان الحماسة وشعر الحرب يحتل حيزا لا بأس به من مساحة الشعر العربي كما نجد أن الطبيعة الاعلامية رافقته دائما، اليس شعرا ناجماً عن مصادمات سياسية لا بد أن يحتل فيها الاعلام المساحة الأكبر؟

وغني عن الإشارة ان فترة طويلة من التاريخ العربي قد اتسعت لهذا الشعر وافردت له مكانة واهمية خاصة. فهناك الشعر السياسي عند الأمويين وعند الخوارج وعند الشيعة وعند الزبيريين وعند العباسيين وعند القرامطة وعند الحمدانيين وقد تميّزت هذه الظاهرة حتى اهتم بها الكتاب والشعراء القدماء فأفردوا لها كتبا جمعوا فيها مختارات مما قيل في هذا المجال على نحو ما نجد عند أبي تمام في كتابه « الحماسة » والبحتري وحماسة الخالديين وكتاب الوحشيات، وقد افرد الدكتور زكي المحاسني كتابه شعر الحرب في ادب العرب للحديث عن هذا الموضوع[٦]

واذا كنا قد بدأنا بشعر الحماسة كنموذج للشعر التحريضي الاعلامي فان ذلك لا يعني انه وحده يقوم بهذا الدور، ذلك ان قصيدة المدح وقصيدة الهجاء وقصيدة الفخر بل وقصيدة الرثاء يمكن أن تتضمن كل الاغراض السابقة.

هذه كلها كانت وسيلة من وسائل الاعلام في تلك الفترة المبكرة، ولعلنا في غنى عن تقديم الشواهد في هذا المجال، فليس هناك دارس للأدب العربي يستطيع أن يتجاهل هذه الكمية الضخمة من قصائد المدح والهجاء المبثوثة في الشعر العربي، وليس هناك سلاح استخدم بشراسة أكثر من هذا السلاح الذي وظفه الأمراء والملوك لخدمة أهدافهم السياسية تارة ولدغدغة غرورهم تارة أخرى.

وليس ثمة لغة أخرى تضم من قصائد المدح والهجاء ما تضمه لغتنا، وليس ثمة مكتبة تفوق مكتبنا في عدد الشعراء الجوالين الذين احترفوا كسب العيش ببيع انسانيتهم في ديوان السلطان، حتى ان لسان الشاعر العربي كان يبدو في أعمال النقد بمثابة أسوإ سلاح عرفته العصور الماضية الى أن تم اختراع البارود[٧].

واذا كانت القصيدة التحريضية قد استطاعت أن تكون النموذج المشرق وسط طوفان قصائد المديح والهجاء وان تقوم بدور التعبئة وحث الهمم وان تصبح الابداع الذي يتوجه الى الجماهير، ويدافع عن مفهوم عام عن فكرة، دون أن تصبح دفاعا عن فرد في

مواجهة الآخرين الذين ليسوا حكاما أو سادة أو أغنياء.. أي أنها القصيدة التي لا تكتب بثمن.. ولا يتم التخطيط لها وفق قيمة المكافأة، لان قيمتها الحقيقية تكمن في استطاعتها الوصول الى الآخرين، وتأثيرها فيهم ونجاحها في امتلاكهم وتغلغل معانيها في وجدانهم.

انها ما يمكن ان نطلق عليه بلغة العصر الحديث اعلام التعبئة الجماهيرية.

لكننا في مقابل هذه القصيدة الاعلامية الناضجة، نجد ما نسميه اليوم بالاعلام المسف، نجد هذا الركام الهائل من قصائد المديح والهجاء، الذي يعتمد على التزلف والنفاق والتباري في التمسح بالاعتاب.

اسلوبان للاعلام يسير كل منهما موازيا للآخر منذ العصر الجاهلي الى يومنا هذا. على اننا يمكن ان نلاحظ ان هذين الاسلوبين يختلطان عند اغلبية الشعراء بحيث لا نستطيع ان نتوقف عند شاعر معين لنقول انه شاعر القصيدة التحريضية لان الظروف سرعان ما ترغمه على الوقوف عند ابواب السلاطين والملوك تعيّشاً وتكسبا.

فالشاعر (الأعشى) الذي كتب قصيدته الوثيقة:

وجند كسرى غداة الحنو صبّحهم مناغطاريف ترجوالموت وانصرفوا

يفخر بانتصار العرب على الفرس في يوم ذي قار، كان مع النابغة شريف بني ذبيان اول من تكسب بالشعر، يقول (ابن رشيق): ان الاعشى اتخذ الشعر متجرا يطوف به البلاد[٨].

ويذكر البغدادي: انه أول من سأل بشعره[٩] وكان الاعشى حقا، بائع شعر متجولاً يضرب في البوادي متمرغا مادحا حتى سُمّي بصناجة الحرب، وقد مدح العرب والفرس، وغيرهم... قيل انه قصد كسرى، ملك الفرس وأجزل له عطيته[١٠].

وتذكر الكتب القديمة، ان كسرى سمع الاعشى يتغنى بقصيدته في «المحلق» وأولها:

ارقت وما هذا السهاد المؤرق ومـا بي سقم ومـا بي تعشق

فلما فسر له البيت، قال كسرى: «ان كان قد سهر من غير سقم فهو لص.

وينفي الدكتور «طه حسين» هذه الحادثة، بقوله: «يحدثنا الرواة بأن «الاعشى» اول من تكسب بالشعر ويروون في ذلك احاديث، ولكنهم يعلموننا في الوقت نفسه بان النابغة كان عظيما، رفيع المكانة في قومه، ولكنه تكسب بالشعر، فغض ذلك منه وحط من قدره، فقد كان التكسب بالشعر - اذن - يغض من الشعراء ويحط من اقدارهم في الجاهلية... ولكن التكسب بالشعر لم يغض من «زهير» ولم يحط من قدره، لا يحدثنا الرواة بشيء من هذا، وكان التكسب بالشعر لا يغض من «الاعشى» ولا يحط من قدره بل كان يرفعه ويعظم من شأنه ويجعله مخوفا مهيبا، ويعرف العرب بتملقه واصطناعه»[١١] على ان ما يذكره الدكتور «طه حسين» في معرض دفاعه عن الأعشى يأتي في الواقع تأكيدا لدور الشعر الاعلامي ذلك انه ينبهنا الى اتجاهين سائدين في الشعر الاعلامي يقف الاتجاه الاول مع المبادىء العامة وينحاز لها فتأتي نماذجه بعيدة عن التزلف والكذب والزيف والنفاق، ولعل ابرز من قادوا هذا الاتجاه: «زهير ابن ابي سلمى» الذي لم يتكسب في الشعر كما فعل النابغة والاعشى، وقد مدح المصلحين بين عبس وذبيان بعد حروب دامية استغرقت اربعين عاما، ودعا المتخاصمين الى الكف عن الاحقاد وسفك الدماء وأشاد بهرم بن سنان والحارث بن عوف، سيدي بني مرة اللذين حقنا الدماء وتحمّلا ديات القتلى.

اما الاتجاه الثاني فقد كان يقوم على تقلب الرأي والتكسب والدعاوة الرخيصة... وكان الأعشى والنابغة أبرز ممثليه.

وما يذهب اليه الدكتور «طه حسين» من ان «الاعشى» كان مهاب الجانب فللخوف منه وليس تبجيلاً له، «فانعدام المواصلات السريعة، ووسائل الاعلام في العصور القديمة، جعل الشعر لسهولة حفظه أكثر انتشارا بين الناس من أية وسيلة اخبارية او اعلامية أخرى، لذا فان بيتا يقوله شاعر في الهجاء قد يغضّ من قبيلة بأسرها، لأن الناس كانوا لا يتحققون من الاحكام التي ترد في الشعر، انما كانوا يريدون أن يحفظوه وان يتايلوا مع إيقاعاته.. والويل لمن يقع تحت سطوة الشعراء - وقصة «نمير» التي اخزاها «جرير» معروفة»[١٢].

فالشعر سلاح ذو سطوة بين الناس، يرفع ويحط ويؤدي احيانا وظائف بعيدة عن طبيعة العمل الفني بأن يكون سجلا لوقائع ومعارك، او واسطة بين القبائل تعرف بها تنقلات القبائل الاخرى وغزواتها او ان يقوم بدور المأذون، يعقد ويزوج، او ان يكون واسطة للحصول على المال. وقصة «المحلق» مشهورة فقد كانت له اخوات، وقيل بنات فقيرات، لم يتقدم احد لخطبتهن، فما زال بالاعشى يوصله بالهدايا التي اقترض ثمنها حتى مدحه بقصيدة منها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نـار في يفـاع تحرّق

فسار الشعر وذاع، فما أتت على (المحلق) سنة حتى زوجهن بمائة ناقة وقيل بألف، فأيسر.

وقد بقي هـذان الاتجاهان يغطيان مساحة واسعة من التاريخ العربي، يسير كل منهما في موازاة الآخر في العصر الاموي كما في العصر العباسي كما في الاندلس والعصر الحديث.. كان هناك دائما هذا الشعر الذي ينشد المبدأ والعقيدة ويرتبط بفكرة عامة، وكان ثمة هذا الشعر الذي يطرح في الاسواق باثمان متفاوتة ومختلفة، حتى كأنه النواة الاولى لشركات الاعلان في العصر الحديث، وحتى أننا نجد شاعرا مثل «البحتري» يقضي حياته كلها في سفر دائب وتنقل مستمر وسعي وراء الممدوحين واعطياتهم، في كل بقعة من ارجاء الامبراطورية العباسية المترامية الاطراف، برها وبحرها، يسهر الليل في صياغة فنه ليبيعه في نهاره بالمال الوفير.

يحدثنا الصولي: ان البحتري بدأ حياته الشعرية بمدح باعة البصل والباذنجان في منبج، وكان اذا سئل عن ابي تمام قال «والله ما اكلت الخبز الا به»، وقد كتب ابو تمام الى أهل معرة النعمان وشهد للبحتري بالحذق في الشعر وشفع له اليهم وأخبره ان يمدحهم

ويقول البحتري: فصرت اليهم بكتابه فأكرموني ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكان أول مال اصبته بالشعر »[١٣].

اذن فقد كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة للدعاية لرجل ما.. يقوم مقام كل وسائل الاعلام التي نعرفها اليوم من مطبوعات ومحطات اذاعية.. الخ وساعد الشعر فوق ذلك على تدعيم الحكومة السلطانية حيث كان السلطان ينهب أموال الأمة كما يشاء وينفقها على ما يشتهي ولكنه يأخذ قسطا مما نهبه فيعطيه للشعراء، وهؤلاء لا يتردّدون عند ذاك، عن جعل السلطان امير المؤمنين وظل الله في الارض.

ولا بد ان هناك أسباباً كثيرة حملت الشعراء على المدح، منها الكسل والفقر وطبيعة المجتمع والبناء الفكري السائد، ولاإنسانية الفرد وانسياقه عبداً تابعا وراء نظام معين.

ويرى الدكتور محمد مندور، ان سبب انتشار المديح واهميته القصوى تعود الى النظام القائم، «ان تنظيم الدولة السياسي وتركيز السلطة قد نمّى المديح حتى كان يسيطر على غيره من فنون الشعر وحتى اصبح هؤلاء الشعراء يحط من قدرهم الا يجيدوا المديح والهجاء كما نراهم يقولون عن «ذي الرمة »[١٤] ولا شك ان استخدام الشعر كسلاح إعلامي رخيص قد أثّر في البنية الفنية للقصيدة العربية، فاتجهت نحو التسطيح والهتاف والتقرير الجاف، كما ادت الى ما يسميه استاذنا الدكتور جلال الخياط، «بالتجزيئية في فهم الآخرين لقصائدهم واستقلال البيت في القصيدة للقرار الذي توقعه القافية ووهج الذهب الذي يأخذ بالأبصار، الاّ ان الشعراء لم يحاولوا ان يدرسوا شخصيات ممدوحيهم بعمق ويبرزوا النواحي الخاصة بهم وبأفكارهم ومشاعرهم، فكرروا المعاني القديمة من ان الممدوح كريم، معطاء، شجاع، وفي، نبيل...

ولم يتطور المديح الى عمل فني او قصصي أو ملحمي مثلا، او الى دراسات نفسية او الى اخبار تاريخية نستعين بها في تفهم الممدوح والتعرّف على عصره والكشف عن الاجواء التي عاشها »[١٥] وتبقى بعد ذلك مسألة جوهرية هي ان الابداع بصورة عامة، لا يمكن ان يكون مجرد خطاب موجه من الذات الى الذات، ولا بدّله ان يضع في اعتباره انه يتوجه الى الآخرين قصد الحوار معهم أو التأثير فيهم والتواصل معهم.. وهكذا كان الشعر دائما وفي مختلف العصور، يتلمس الوصول الى الاخرين عبر قنوات مختلفة، الرواة قديما ووسائل الاعلام المختلفة حديثا. ولقد اتيح للشعر العربي من وسائل الذيوع والانتشار مالم يتح لأي شعر آخر في العالم عبر طريق الرواية والحفظ والتدوين، حتى أصبح ذاكرة الجماهير العربية وسجل تاريخها وتراثها الثقافي.

وما من شك أن الشعر في العصر الحديث يستفيد من تقنية الإعلام ووسائله كما تستفيد سبل الاتصال الاعلامي من الشعر والإبداع الادبي والفني بصفة عامة، وذلك بتوظيفها واستخدامها في الوصول الى أعماق الجماهير، التي تستهدفها مخططات وبرامج الاعلام المختلفة، فهناك القصيدة الدعاية، التي تبث أفكارا عقائدية أو تمجد مناسبات قومية ووطنية او تطري مشروعات وانجازات مختلفة أو تمدح حاكما او ملكا او توجهاً سياسياً معيّناً.. وتنجح وسائل الاعلام الحديثة في تغطية عيوب مثل هذا النوع من الشعر باستخدام الصورة او المؤثرات الموسيقية بحيث لا نكاد نحس بما يتضمنه هذا النوع من الشعر مباشرة وتقريرية وهتاف وخطابية. كذلك قد تلجأ التقنية الاعلامية الى استخدام هذا النوع من القصائد كمادة غنائية ليتحقق لها الذيوع والانتشار والتأثير.

ولعله من نافلة القول الاشارة الى ان وسائل الاعلام الحديثة من اذاعة (مرئية ومسموعة) وصحافة وخيالة واشرطة تسجيل (كاسيت) (وفيديو) وغيرها من وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية قد استطاعت ان تصبح وسائل ضرورية لنشر القصيدة، بل وإعادة صياغتها وتقديمها بأشكال واطر متعددة تجعله أسرع في الوصول الى الجماهير والتأثير فيها.

ولم تؤثر وسائل الاعلام الحديثة في قصيدة الدعاية فحسب، وانما وصلت حد محاولة تأطير القصيدة الوجدانية التي لا تضع في اعتبارها فكرة الايصال والتوصيل قدر ما تهتم بالتعبير عن قضايا وانفعالات ذاتية. حيث نجد ان هذا النوع من القصائد يقدم للقارىء او المستمع او المشاهد بطرق مختلفة تعطيه فرصة التأمل والاستغراق الوجداني، ومعايشة التجربة الفنية وسبر أغوارها، بل اكتشاف خصائصها وتقنيتها.

على أن هذا الظرف من الشعر كما يقول الدكتور زكي الجابر[١٦]، يستعصي على وسائل الاعلام الجماهيرية وليس سهلا انقياده لها، كما ان استجابة الجماهير الواسعة لها أمر غير مضمون مهما تفننت وسائل الطباعة والاذاعة والتلفزة تلويناً واخراجا، ولعل مرد ذلك الى ان هذا الضرب من الشعر (داخلية تتوجه الى داخلية، من أجل ذلك فهو يحتاج الى جهد وتفحّص من اجل استطيابه وتذوقه، انه ذلك الشعر الذي يعيد صياغة الحياة، ويستجيب لحاجاتها ومطالبها، ويهدم كل ما هو تقليدي، آسن وراقد، ليعيد خلقه وليعطيه ملامح العصر وقسمات التطور، ويملأ النفس الإنسانية بالطمأنينة التي فقدتها وسط عالم مادي يفرض عليها صراعا في الداخل كما يفرض عليها صراعات متعددة لمواجهة العلاقات الانسانية الظالمة والمفككة والقاسية. واذا كانت وسائل الاعلام المختلفة، الموسيقى بتعدد قنوات استخدامها، والصوت بمختلف اجهزة استقباله الصورة بتنوع وسائل تقديمها، والمسرح بمدارسه واجتهاداته المتنوعة والكتابات والمحاضرات، والاضاءة واللون. اذا كانت كل هذه الوسائل تستطيع ان تكون وسيلة من وسائل تقديم المادة الادبية وتناولها بطرق مختلفة، بحيث نستطيع ان نستقبل قصيدة شعرية وسط اضاءات متعددة من موسيقى ولون وصورة واداء معين، وبحيث يمكن أن تصبح هذه القصيدة وسط هذه التقنيات شيئا له تأثيره وقيمته وقدرته على التغلغل في النفس، فان هذه الوسائل كلها لا يمكن الا أن تكون مجرد عوامل مساعدة ليس في مقدورها أن تجعل من القصيدة الرديئة عملا فنيا متكاملا، وذلك !ن القصيدة كعمل ابداعي، تكتسب وصفها من حيث أنها شعر بحكم طبيعتها، وليس بحكم ذيوعها عبر أجهزة الاعلام، فأجهزة الاعلام، لن تستطيع مهما تفنّنت أن تخلق من الشعر، شعرا. ولكنها تستطيع، على أية حال، وبما لديها من

امكانيات وتقنيات، أن تمنح فرصة أكبر للتمتع بقيم الجمال الكامنة في العمل الابداعي، كما أنها وبما لديها من قدرة على الانتشار، تستطيع أن توسع دائرة التذوّق الجمالي للاعمال الابداعية بحيث لا تظل هذه الأعمال حكرا على فئة معينة أو قطاع محدود من المثقفين، ولعلها بهذا الدور تؤدي خدمة رائعة للعمل الابداعي كما تؤدي وظيفة هامة بالنسبة للجماهير.

الصحافة العربية واثرها في الانتاج الثقافي العربي

لا يمكن لحديث عن أثر أدوات الاتصال الاعلامي، في طبيعة الانتاج الثقافي العربي، أن يفصّل دور الصحافة العربية الذي يحتل جانبا مهما وواسعا في هذا المجال. وعلى كافة المستويات.

فكما شغلت الصحافة العربية بقضايا التحرر الوطني فكانت منبرا من منابر التحريض والثورة والكفاح ضد الاستعمار ورموزه في الوطن العربي، اهتمت كذلك بالأدب العربي والثقافة العربية، ضمن تصدّيها لمجموعة التحدّيات التي واجهت الانسان العربي وكانت تستهدف حريته وعقيدته وتراثه الحضاري. وقد أدرك الاستعمار أهمية الصحافة وأثرها، فأصدر مجموعة من الصحف،واستخدم عددا من الكتاب الذين ارتضوا التعاون معه والترويج لمطامعه وأهدافه وقد مرت الصحافة العربية منذ نشوئها حتى الحرب الكونية الثانية في ثلاث مراحل:

١ - صحف صدرت في عهد العثمانيين.
٢ - صحف صدرت في عهود الاستعمار والحماية.
٣ - صحف صدرت بعد استقلال عدد من الاقطار العربية.

وانضبطت اهتمامات هذه الصحف على القضايا السياسية وفق الجهة التي كانت تتبناها وتمولها.

وقد صدرت أوائل الصحف في الوطن العربي على الترتيب التالي:

١ - الوقائع المصرية (مصر)، صدرت عام ١٨٢٨.
٢ - المبشر (الجزائر)، صدرت عام ١٨٤٧.
٣ - حديقة الأخبار (لبنان)، صدرت عام ١٨٥٨.
٤ - الرائد التونسي (تونس) صدرت عام ١٨٦٠.
٥ - سورية (سوريا)، صدرت عام ١٨٦٥.
٦ - طرابلس الغرب ليبيا صدرت عام ١٨٦٠.
٧ - الزوراء (العراق) صدرت عام ١٨٦٩.
٨ - صنعاء (اليمن) صدرت عام ١٨٧٩.
٩ - المغرب (مراكش) صدرت عام ١٨٨٩.
١٠ - الغازية السودانية (السودان) صدرت عام ١٨٩٩.
١١ - حجاز (الحجاز) صدرت عام ١٩٠٨.

ومعظم هذه الصحف كانت صحفا رسمية ناطقة باسم السلطة الحاكمة، ولم تكن تهتم بالأدب الا في حدود ضيقة، بهدف كسب القارىء الذي لا يهتم كثيرا بالمعارك السياسية أو الحزبية.

لكن هذا الاهتمام سرعان ما أخذ يتنامي ويطرّد بظهور الصحف الوطنية والمجلات الأسبوعية التي استقطبت كبار الكتاب، والأدباء الذين اصبحت الصحافة مصدرا لرزقهم ومنبرا لتوصيل أفكارهم ومعتقداتهم السياسية الى القارىء، ودعواتهم لتجديد الأدب العربي وتخليصه من الشوائب التي علقت به من جراء عهود الانحطاط والتخلف «ويمكن القول بأن (فن المقالة) بدأ بكتابات (جمال الدين الأفغاني) وتلاميذه محمد عبده وأديب اسحق وسليم النقاش وغيرهم، وقد سبقت ذلك كتابات رفاعة الطهطاوي والشدياق وعبد الله أبو السعود وغيرهم في (الوقائع المصرية) ولكنها كانت غارقة في السجع، لم تستوف أصول فن المقالة الا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عندما أخذ الأسلوب العربي طابعه الجديد في توصيل الفكرة، والتحرر من المقدمات والمداخل والاسجاع المتكررة ثم تطورت مدرسة المقال الى مرحلة جديدة بكتابات (علي يوسف) ومصطفى كامل، وعبد العزيز جاويش ومصطفى لطفي المنفلوطي وسليم سركيس ورشيد رضا وخليل مطران وأحمد لطفي السيد وفريد وجدي ولطفي جمعة، ولعل ذلك جاء في ظل نشأة الأحزاب السياسية والصحف المؤيدة لها المدافعة عن وجهةنظرها»[١٧].

وكانت الكتابات في هذه الفترة، تتمثل في لونين، لون وجداني يعنى بالعبارة البليغة والمعنى العاطفي، ولون عقلي يعنى بالعبارة الموجزة البسيطة والمضمون الذهني، ثم ظهرت في أوائل القرن العشرين وتطورت بعد الحرب الكونية الأولى نماذج أكثر تطورا لأدب المقالة،تتميز بالعرض السريع الواضح والتعبير التلغرافي والتحرر من العبارات العتيقة القاموسية. وتمثلت هذه المقالات فيما كان يكتبه طه حسين وهيكل والعقاد والمازني وسلامة موسى وتوفيق دياب والتابعي وأحمد حافظ عوضه وعبد القادر حمزة وعباس حافظ وأمين الرافعي ومحمود عزمي وداود بركات وأنطون الجميل.

وكانت المقالة السياسية أدباً له طابعه الواضح من حيث أسلوبه ومضمونه، وقد جمع أغلب الكتاب بين المقالة السياسية والمقالة الأدبية، ويمكن القول بأن أغلب الكتب الأدبية التي أصدرها كتابنا في فترة ما بين الحربين، انما كانت فصولا نشرت في الصحف اليومية أول الأمر، ومن هذا: الأيام، ودعاء الكروان وحديث الأربعاء لطه حسين، وأوقات الفراغ، وثورة الأدب، وتراجم شرقية وغربية لهيكل ومطالعات ومراجعات وساعات بين الكتب للعقاد وقبض الريح وصندوق الدنيا وحصاد الهشيم للمازني وفيض الخاطر لأحمد أمين وذكريات باريس والبدائع والأسحار والأحاديث لزكي مبارك وخطرات نفس لمنصور فهمي والنظرات للمنفلوطي وجميع كتب سلامة موسى بلا استثناء، ولم يكن الأمر في هذا المجال مقصورا على مصر وانما برزت هذه الظاهرة في معظم أقطار الوطن العربي، حيث كانت جميع المعارك الأدبية التي ارشدت قواعد الأدب الجديد، تثار على صفحات الصحف ثم تجمع بعد ذلك في كتب، مثل المقالات التي كان ينشرها العقاد وشكري والمازني، تلك المقالات التي أرست أسس ما سمي بعد ذلك بمدرسة الديوان.

وحتى أن مدرسة (أبولو) اصدرت مجلة مختصة لاحتضان كتابات كتابها وللدعوة لتيارها، وقد ضمت جماعة (ابولو) شعراء من مصر وتونس والعراق والسودان والمهجر، أمثال عبد الرحمن

عبد الرحمن، ومحمد احمد المحجوب وتوفيق البكري من السودان وأبو القاسم الشابي ومحمد الحليوي من تونس والجواهري وحسن الطريقي من العراق وايليا أبو ماضي وشفيق المعلوف ورياض المعلوف من المهجر.

وقد حدد (أبو شادي) اغراض جماعة أبولو في «السمو بالشعر العربي وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا، ومناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر وترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا» وقد كانت مجلة (أبولو) أول مجلة عربية تخصصت في الشعر ونقده، وقد صدر العدد الأول منه في سبتمبر ١٩٢٢ واستمرت في الصدور حتى سنة ١٩٣٥. وقد أشار (أبو شادي) في مذكرة اصدارها الى أنها تهدف الى بث لإخاء الأدبي الذي هو «مظهر عملي وجوهر من جواهر الروح العالية التي تتسع نظراتها فتذهب الى مدى بعيد ثم تكون عالية الإحساس تسخر بالقيود وأوهام التعصب والتحزب والتحاسد والأنانية، وكلما تجلى لإخاء الأدبي نشأ عنه تبادل الفوائد الأدبية وخدمة الأدب ذاته، بتصحيح مقاييسه وتهذيب مراميه الى الغايات الفنية بدل المنازع المادية والشخصية، كما أشار (أبو شادي) الى أن اصدار المجلة يهدف الى محاربة الزعامات الأدبية والألقاب الجوفاء المصطنعة حتى ولو جرى العرف على التسامح بها».

وقد أشار الدكتور (ابراهيم ناجي) الى مدرسة أبولو في اتصالها بالأدب العالمي ومتابعتها للتيارات الفكرية الجديدة وفي ايمانها برسالتها كمجددة للشعر العربي موسعة لأغراضه، محددة لوظيفته كعمل انساني شامل، وكجامعة تضم شباب أدباء الشرق في ندوة واحدة، وأن مدرسة (أبو للو)) قد استرعت الأنظار فهي تمثل طلاقة الفن كما تمثل التجاوب الفنّي بين أعضائها.

وقد ارتبطت (مدرسة أبولو) في محيطها المصري بعهد (اسماعيل صدقي) حيث كان جو الديكتاتورية السياسية والحد من سلطة الفكر والرأي والقلم «ولذلك ارتد الشعر الى الشكوى والأنين الذاتي والتحدث عن الأحلام والأشواق والهرب من واقع الحياة، كما ارتبطت في محيطها الخارجي بحركة المقاومة الشاملة للاستعمار في الوطن العربي، وبروز مسألة (فلسطين) كمشكلة أثارت الرأي العام العربي، ودفعته الى التجمع والدعوة للقومية العربية، وهذا هو الجانب الذي تأثره شعراء المهجر الذين كان شعرهم في مدرسة العصبة الأندلسية فانما على الرصانة في الأداء والدعوة الى الحرية والقومية العربية وانبعاث امجاد الأمة العربية وتراثها»[١٨].

ومثلما كان الأمر في المشرق العربي، كانت الصحافة في المغرب العربي وسيلة من وسائل توعية الانسان العربي ومواجهة التحديات التي كانت تستهدف لغته وعقيدته وتراثه الحضاري، ولعله غني عن القول أن الاستعمار في المغرب العربي، الايطالي في ليبيا والفرنسي في تونس والجزائر والمغرب، قد عمل على عزل هذه الأقطار عن الوطن العربي، فادعت ايطاليا أن ليبيا هي الشاطىء الرابع لروما.. وسعت فرنسا الى فرنسة أقطار المغرب العربي وحملت معها مؤامرات التجنيس والتجزئة والادماج، الى غير ذلك من المؤامرات لكن هذه الجهود الاستعمارية وجدت مقاومة وتصديا من ابناء الأمة العربية في هذه الأقطار، وقاد مثقفوها معارك المقاومة بالقلم والسلاح، وكانت الصحافة في المغرب العربي عماد هذه المقاومة ومنبرها.

ففي ليبيا التي تعرضت للغزو الايطالي، أدرك الليبيون أنهم لا يتعرضون لغزو يستهدف أرضهم فقط ولكنهم كانوا يدركون أن الاستعمار يستهدف بالدرجة الأولى عروبتهم وعقيدتهم وكيانهم الوطني.. ومن أجل ذلك كانت مقاومتهم تصديا لهذه المخططات الاستعمارية.

لقد جاء الاستعمار الايطالي فأخمد كل صوت وطني، واستفاد الاستعمار الايطالي من التجربة الفرنسية في الشمال الأفريقي، فحمل معه الى جانب غزوه الحربي خطة سياسية تقوم على الاحاطة التامة بالأوضاع الاجتماعية والثقافية، وانشاء المراكز للدراسات الاستعمارية لرسم الخطة التي سيسلكها في تعامله مع المواطنين وانتهت به الى وضع برامج محددة تقوم على العناصر التالية، التي تصادفنا في خطط الاستعمار الفرنسي:

١ - القضاء على العنصر الوطني.
٢ - قطع الصلات بينه وبين ماضيه الحضاري.
٣ - طمس معالم الشخصية الوطنية.
٤ - محاربة اللغة العربية والثقافة العربية.

«لقد أدرك الاستعمار الايطالي أن صراعه مع القوى الوطنية سيطول، ويمتد، وأنه لن ينتهي عند حدود الانتصارات الحربية، وأنه سيواجه مقاومة ضارية تقوم على الاعتزاز بالمثل والتقاليد التي تحفل بها الحضارة الاسلامية، وأن استمرار الصلة بهذه القيم، من شأنه أن يذكي في النفوس شعلة الصمود والمقاومة والنضال المستمر.. وكان أول العناصر في هذه الخطة تقوم على عزل المواطن عن كافة أسباب الثقافة والتعليم.

«ولقد أقام الاستعمار الايطالي بليبيا اثنتين وثلاثين سنة خرج بعدها دون أن يخلف أية قاعدة ثقافية يتمثل فيها الاحتضان الصحيح لثقافته، بحيث تمثل تيارا معينا في مجرى الحركة الفكرية في البلاد.. وتلك حسنة من حسناته - لم يروها - جعلت بناء الشخصية الأدبية الفكرية بعد الاستقلال يقوم على الاختيار الحر لمصادر الثقافات المختلفة مما ابعدها عن الازدواجية والانقسام»[١٩].

وقد لعبت الصحف الصادرة في هذه الفترة دورا كبيرا في معركة الحفاظ على الأصالة العربية وعلى التمسك بالشخصية العربية، واهتمت بالأدب العربي وكانت حلقة اتصال مهمة تربط بين أبناء الأمة الواحدة وتحطم أسوار العزلة المفروضة حتى أن مجلة (ليبيا المصورة) وهي مجلة يصدرها الايطاليون وجدت نفسها مضطرة الى الاهتمام بالأدب العربي كسبا للقارىء الذي سينفر منها لو أنها اكتفت بنشر ما يهم الإيطاليين، وما يريدون له أن يصل الى القارىء العربي.

وفي تونس والجزائر، حملت الصحافة رسالة الكفاح في مواجهة مخططات الفرنسة والتجنيس وابادة الحرف العربي والانتماء العربي، وكانت صحف المشرق تستقبل المقالات التي كانت تكتب في تونس أو الجزائر، ولا يكون ثمة مجال لنشرها في هذه الأقطار نتيجة

للضغوط الاستعمارية، وقد نشر (الثعالبي) مقالات وطنية تهاجم فرنسا، في صحف مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند، ووجدت شاعرية الشابي من يحتفي بها في صحف المشرق والمهجر، وكانت مقالات ابن باديس والابراهيمي والعقبي وبيوض تنشر في صحف متعددة لتعبر عن صمود الشعب العربي في الجزائر في وجه مؤامرات التغريب والفرنسة.

وفي المغرب، عرفت البواكر الأولى في الأدب والنقد طريقها الى القارىء عن طريق الصحافة مثل مجلة المغرب، ودعوة الحق، والمغرب الجديد، والثقافة المغربية، ورسالة المغرب، والأطلس والأنيس، والبصائر، والسعادة وغيرها، وقد رسمت مجموعة الكتابات الأدبية التي نشرت بالصحف، معالم اتجاه أدبي عرف بمدرسة الصحافة الوطنية في المغرب. وابرز من مثل هذا الاتجاه، محمد بن العباسي القباج الذي كان يرأس تحرير مجلة (الينبوع) وقد نشر مجموعة من المقالات بعنوان (الأدب العربي في المغرب الأقصى) جمعها بعد ذلك في كتاب وقد كتب عنه الدكتور زكي مبارك، في مجلة المغرب العربي يقول: (وكتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى يمثل ما عند المغاربة من القلق والخوف والجزع، فهو يصورهم رجالا يستوحشون من المدنية الحديثة، كل الاستيحاش، والأدباء الذين تراجعوا لأنفسهم في هذا الكتاب يذكرون جميعا أنهم نشأوا نشأة دينية، وأنهم من أعداء البدع والضلالات، ومن أنصار الفضيلة ومكارم الأخلاق (ومن أجل ذلك أراني مسوقا الى الاعتراف بصدق نشأة اولئك الشعراء الذين جعلوا (الفضيلة) فاتحة الحديث وخاتمته »[٢٠].

ويُعدّ القباج من أوائل الذين وجهوا الأدب المغربي وجهة جديدة، ولعل أهم ما تعرض له من توجيهات نقدية أو (لذعات بريئة) كما كان يسميها، تنحصر في حملته على الشعر التقليدي ومهاجمته لصور البديع المستشرية في الجناس، وحسن المطالع، وحسن التخلص الخ... والدعوة الى العناية بالمعنى قبل المبنى، وتتبعه للهنات اللغوية والأخطاء العروضية، فهو مثلا يأخذ على محمد الشنقيطي في احدى غزلياته بعض الاخطاء في اللغة، ويتتبع أخطاءه العروضية أيضا[٢١].

والواقع ان الصحافة المغربية قد اسهمت الى حد كبير في اثراء الحركة الأدبية في المغرب، وعلى صفحاتها طرحت القضايا الفكرية والأدبية، وكل ما يتعلق بتطور الابداع الفني واثرائه، وعن طريقة تعرف القارىء على قصاصين وروائيين ونقاد مغاربة وكان للمجلات المتخصصة اثر بارز في هذا الاتجاه كمجلة رسالة الفن، والقصة والمسرح، والمسرح الأدبي، وغيرها.

أدب الصحافة وصحافة الأدب:

لا يمكن، في الواقع، بعد هذا العرض - أن نتجاوز الاشكالية القائمة، التي تطرح مجموعة من التساؤلات، حول امكانية اعتبار الكتابة الصحفية، التي تولي الأدب اهتماما خاصا - نوعا أدبيا متميزاً خاصة بعد ان احتلت أبواب الأدب حيّزاً لا بأس به في أغلب الدوريات الصحفية الصادرة في الوطن العربي، مشرقه ومغربه. وباتت تقوم بدور فعال ومؤثر في التعريف بالاصدارات الجديدة ومتابعتها متابعة نقدية، بحيث أن القارىء لم يعد يستغني عن هذه الأبواب الصحفية، التي أصبحت تمثل بالنسبة اليه دور الموجه والمرشد والنافذة التي يطل منها على منابع الثقافة الانسانية ومصادرها ويتعرف من خلالها على كتاب وابداعات ما كان ليتعرف عليها لولا هذا الانتشار الذي اتاحته الصحافة بوجه عام والصحافة الأدبية بوجه خاص، ورغم أن كثيراً من الكتّاب، لا يقرون ذلك ويتهمون هذه المتابعات الصحفية بأنها تجنح الى السرعة والتسطيح، دون الدرس العميق والاناة في البحث واستخدام الحقائق وتعمقها.

فالكاتب الذي كان يراجع موضوعه أياما ويبحث له عن المراجع والأسانيد قد أصبح مضطرا أمام ضغط المطبعة الهادرة، التي تدور في وقت محدد الى أن يكتب من الذاكرة أحيانا، أو لا يستكمل عناصر مراجعاته من ناحية أخرى فيؤدي ذلك الى القصور والخطأ.

ومن ناحية أخرى، فان استقطاب الصحافة للأدباء واعتمادهم عليها كمصدر رزق، قد أجبرهم على تلبية رغباتهم والانصياع لأهدافها وتوجيهاتها السياسية، الأمر الذي أثر الى حد كبير في طبيعة الكتابة الأدبية، ولم يكن في مقدور الأدباء الذين جرفتهم الصحافة السياسية الى طرائقها واساليبها، ان يتخلصوا من هذه الطرائق والأساليب في مقالاتهم الأدبية.

ومع ذلك، فان الصحافة العربية كانت عاملا هاما في الحياة الفكرية والسياسية في الوطن العربي، وكان لها أثرها الواضح في قضايا الأمة العربية الكبرى في هذه المرحلة، وهي قضايا الحرية والوحدة ومقاومة الاستعمار والنفور الأجنبي، والاستبداد الدخلي، وفي وضع قواعد الأساس للفكر العربي المعاصر، واليها يعزى الأثر الكبير في تطور الأدب العربي من ناحيتي الأسلوب والمضمون، فقد حررته من السجع والزخرف والاسهاب وأمدته بالموضوعية وفتحت امامه الآفاق فأذاعته ونشرته على نحو لم يكن يتحقق عن طريق الكتاب المطبوع. وكان لها أثرها في ابراز عدد كبير من الأدباء لمعت أسماؤهم عن طريق الصحف، كذلك كان للصحافة اثرها في معالجة وتطوير قضايا الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد.

ويمكن القول بأن الكتابات السياسية هي أيضا ادب، فقد كانت بعيدة الأثر في توجيه الأمة وساعدت على غنى اللغة وثراء المضمون، ووضوح الفكرة. وكان الأدب العربي الحديث، شعرا ونثرا، قد عرف طريقه الى القارىء عن طريق الصحافة، «بحيث يمكن القول بأن أغلب الكتب الأدبية التي اصدرها كتابنا في فترة ما بين الحربين، انما كانت فصولا نشرت في الصحف اليومية أول الأمر ».

«ويرى النقاد انه بالرغم من ظهور القصة وانتشارها ومنافستها للمقال، فان ادب المقالة ما زال هو عماد الألوان الأدبية والفكرية والصحفية في الأدب العربي المعاصر.. وقد اذاعته الصحافة وشجعته وعدلت اتجاهه فجعلته مختصرا سهلا بسيط الأسلوب، وما زال هو الاداة الوحيدة لاستيعاب جميع الدراسات التاريخية والسياسية والعلمية والفنية والاقتصادية.

وقد كانت المقالة السياسية، أبرز فنون المقال وأبعدها أثرا في

مجال الصحافة، ذلك انه من الطبيعي ان يظهر اثر السياسة واضحا في الادب وفي الصحافة على السواء. فقد نشأ الأدب العربي المعاصر في احضان النهضة الوطنية وتطور معها وتأثر بالتحول الذي اصابها حين انتقلت من الهجوم على الاستعمار والاستبداد في أول الأمر، الى الصراع الداخلي بين الاحزاب والأنظمة الحاكمة »[٢٢].

ويرى بعض الكتاب أن الجدل السياسي، كان له الفضل في تطور المقالة السياسية، واكسابها اهمية ومكانة ومقدرة على التأثير، بحيث أن الصحف التي لم تكن محظى بالتأييد الشعبي اضطرت الى الاهتمام بالدراسات الأدبية لتستقطب بالتالي مجموعة من كبار الأدباء وتدفع بهم بعد ذلك لتبني وجهات نظرها، ولتستطيع بالتالي الوصول الى كثير من قراء خصومها السياسيين. وقد نجحت هذه الصحف في ان تصرف الأدباء عن الاهتمام بالأدب وتجعل منهم كتابا سياسيين بالدرجة الأولى وأدباء بالدرجة الثانية. وهو ما أدى الى تغليب وجهة النظر السياسية حتى فيما يتعلق بمسائل الإبداع الأدبي، بحيث اصطبغت المساجلات الفكرية والأدبية بصبغة تحكم فيها التعصب السياسي في بعض الأحيان، والامثلة على ذلك كثيرة مما نشر في الصحف.

على أنه يمكن القول بعد ذلك كله أن الصحافة بصورة عامة والصحافة الأدبية بصورة خاصة قد افادت الأدب وعملت على نشره وتوسيع دائرة قرائه وخلصت الأسلوب الأدبي من التقعر والتعقيد. لكن اهتمام الصحافة بالأدب لم يكن دائما في صالح المادة الأدبية. ذلك أن الصحافة نفسها لم تكن رصينة دائما ولم تجعل من رسالتها وأهدافها دائما تقديم الثقافة الرصينة للقارىء، بقدر ما وضعت في اعتبارها لأسباب متعددة - هدهدة القارىء وتملقه، وهو ما يظهر الفرق الواضح بين الصحافة وبين الفكر والأدب، فالصحافة تعطي المادة السريعة التي يستطيع الأديب بعد أن يهضمها أن يتحول على قلمه الى فن له مقوماته، ولذلك فان الكتابات الصحفية السريعة مهما وصفت بأنها ادب فانها كتابات صحفية لا يقبلها الأدب لانها لا تحمل عنصر الحياة والاستمرار، فهي طعام سريع، أو زهور مقطوفة سرعان ما تذبل. اما الأدب فغايته أن يعيش ولا يقضي عليه مرور الأيام.

وسائل الاتصال الاعلامي وتأثيرها الثقافي:

لا شك أن هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين، قد شهدت نموا متزايدا وسيطرة متنامية واستخداما واسعا لوسائل الاتصال المختلفة. وقد تعددت وسائل الاتصال هذه وتشابكت، حتى استطاعت ان تهيمن بشكل واسع، ليس على الثقافة فحسب، بل على جميع شؤون الحياة واغراضها. ولعله من نافلة القول الاشارة الى التأثير الواسع لهذه الأجهزة بحكم قدرتها على التطور التقني الذي اتاح لها الانتشار والوصول الى قطاع واسع جدا من الجماهير في جميع انحاء الكرة الأرضية، وهو ما دفع بعض الباحثين في هذا المجال الى الحديث عما اسموه بعصر «ما بعد التلفزة»، عصر الثقافة الثالثة، المتميزة بالاتصالات المزدوجة المنحنى، حرية انتقال الصورة التي تحدث ثورة تختلف جل الاختلاف عن تلك التي تلت حرية انتقال المطبوعات. ذلك أن الازدهار التقني والتطور التكنولوجي الذي هو احدى النتائج الباهرة للثورة العالمية في العصر الحديث، هذه النقلة الحضارية للانسان قد استطاعت، والى حد كبير وواضح ان تحدث تغييرا من جميع جوانب الحياة المعاصرة، كما مس تفكير الانسان نفسه، بحيث أصبحت حياتنا المعاصرة تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي كان يعيشها الانسان قديما، في نطاق المهنة والرفاه المنزلي وأوقات الفراغ، وحتى في استعمال الأواني واقتناء الملابس، ناهيك عن تعدد سبل المعرفة والوعي «ولا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار، ومن الناحية الثقافية، وهي مستوى اعلى من مجرد مستوى التقدم المادي، أول ما نأخذ، تلك التقنيات المتصلة بالاذاعة الجمعية، وهي ما يطلق عليها اسم (MASSMEDIA) أو وسائل اعلام الجماهير»[٣] ما هي اذن هذه الوسائل الاعلامية الجماهيرية التي جاءت لتضاف الى وسائل الثقافة التقليدية (التعليم في المدارس، الكتب، النشرات، المسرح، الفنون، المعارض، المحاضرات....) من غير أن تحل محلها؟ ان في وسعنا ارجاعها الى الآتي:

١ - وكالات الأنباء العالمية بما تمتلكه من قدرات وامكانيات فنية ومادية تجعلها قادرة على نقل اخبار العالم وتشكيل التصورات عن الأشخاص والشعوب والثقافات والوصول الى كل إنسان على سطح الكرة الأرضية.

٢ - التطور التقني الواسع للاتصالات الدولية من خلال الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية.

٣ - تطور صناعة البث المرئي، وانتشار اجهزتها وأشرطتها، خيالة وفيديو.

٤ - الاذاعات الموجهة وانتشارها، واعتمادها على نشر الثقافة المسيسة والعقائدية.

كل هذه الوسائل، تؤثر في طبيعة الانتاج الثقافي من حيث مادته وتأثيره: وهي وان كانت تخضع في الغالب لأطر فكرية موجهة، وتستغل من مؤسسات سياسية أو شركات تجارية استغلالا متعددا، فان وسائل الاتصال الاعلامي هذه، قد استطاعت والى حد كبير ان تنقل المعرفة الانسانية بصورة واسعة. وعلى سبيل المثال يمكننا ان نشير الى ان هذه الوسائل قد اصبحت في عصرنا هذا، احدى الطرق الفعالة لحفظ الآثار الفكرية والفنية (بحفظ الصوت والصورة، واعادة احداثها أو ترميمها (الاسطوانات وقد طرأ عليها تحسين اسطوانات التسجيل المكثف والاشرطة المغناطيسية)، والصحافة الواسعة الانتشار التي تقدم الانباء بصورة فورية تقريبا ولا سيما بفضل الآلات الكاتبة اللاسلكية المزودة بمزيد مطرد من الصور الفوتغرافية المنقولة فورا - والتي توزع في كل مكان تقريبا خلال اوقات ذات سرعة قصوى، وهي تشتمل على طبعات تجاوز في الغالب ملايين النسخ.

وعلى هذا النحو نجد وسائل الاعلام الجماهيري، وهي تتكامل وتتنافس، قد فتحت امام كل امرىء بوجه خاص، وفتحت امام الجماهير عامة امكانات الاستعلام والتسلية والثقافة مما لم يكن يخطر ببال احد في فترة لا تزيد عن بضع عشرات من السنين، بحيث لم

يبق اليوم اي ريف ولا أية ارض بعيدة، ولا أية جزيرة منسية الا وفي وسع وسائل هذا الاتصال ان تبلغها.

(وليس في امكان اي انسان ان يتنبأ بمدى هذا التطور، ونحن نرى ان التقدم يمضي باطراد، ولا يخلو من طرافة ان نفطن الى ان احدث الاكتشافات في هذا المجال تبدو على انها تترجم بحركة معاكسة تعمل على «اللاجهرة» فالاقمار الصناعية، ومحطات الاتصال الكوني، والتلفزة بطريق الاسلاك والتوزيع البعيد وأشرطة التسجيل التلفزيونية - كل ذلك يتيح في آن واحد الافلات من احتكار الاذاعة الصوتية والتلفزة والحصول على امكانات متزايدة للاصطفاء مثلما يتيح بعض الرجوع الى «الثقافة في المنزل» وقد بدأ الباحثون، بهذا الاعتبار يتكلمون على عصر ما بعد - التلفزة - عصر الثقافة الثالثة المتميزة بالاتصالات المزدوجة المنحى، حرية انتقال الصورة، التي تحدث ثورة تختلف جل الاختلاف عن تلك التي تلت حرية انتقال المطبوعات»[٢٤].

لقد اشار «اندريه مالرو» الى هذه الأهمية التي باتت تشكلها وسائل الاتصال المرئي والمسموع بقوله: «لقد بدت، الى جانب التقدير المتزايد للقيم الأدبية والعلمية، وهي قيم فكرية محضة، ظاهرات جديدة، ماضٍ فني لم يعد من الممكن رفضه مثلما كانت ترفضه الحضارات السابقة، دليل ذلك بقاء آثار الفن والشعور بخلودها، وحاضر يوفر سبل المعرفة للفرد كما يوفرها للجمهور، بفرص متساوية من الحلم والتخيل، بفضل التقنيات الجديدة التي تمثلها السينما والتلفزة، وما كان فكريا محضا أصبح أكثر اتساما بالعاطفة بفضل الانتشار الضخم للصوت، وخاصة للصورة، وبفضل تقارب عوامل وشعوب ومشاهد، كانت منفصلة بعضها عن بعض خلال قرون مديدة، ثم أصبحت اليوم تقاربة تقاربا مدهشا رائعا».

على أن الذي يعنينا في ختام هذا العرض لتأثير وسائل الاتصال في طبيعة الانتاج الأدبي هو وصولنا الى النتيجة التي يتمكن من خلالها معرفة الاجابة على التساؤل والذي يطرح مشكلة تفاوت أهمية هذه القنوات في التأثير في طبيعة العمل الابداعي، في الوقت الذي تؤثر فيه في الملتقى... بعد أن بات واضحا أن هذه الوسائل تؤثر بطرق مختلفة في طبيعة المادة الابداعية. لقد ذهب بعض الباحثين[٢٥]، الى تقسيم الاجهزة الاعلامية، الى حارة وباردة، وقد بنوا افتراضهم على مدى الاشتراك أو الاستغراق، وهم يذهبون الى أن الوسط الطباعي بشكله التقليدي يشرك حاسة واحدة في حين أن الأوساط الجديدة وبالأخص التلفزيون تشرك كل الحواس في آن واحد، ومن هنا فبعض الأوساط باردة والأخرى حارة. الطباعة وسط حار، لأن الصفحة الواحدة تعكس معلومات كثيرة، وتأتي بدرجة عالية من الوضوح لحاسة واحدة.

وعلى النقيض من ذلك، يأتي التلفزيون كوسط بارد أقل وضوحا، أي يعطي قليلا من المعلومات ولكنه يستغرق كل الحواس في وقت واحد، وهذا يعني المشاركة العالية والاستغراق، ومن هنا فان الجيل الجديد المنهمك في مشاهدة التلفزيون يعيش حسا مختلفا عن الجيل السابق الذي نشأ مع وسطين حارين: الراديو والطباعة.

وبعد.

فليس من شك من أن تكنولوجيا الاعلام ثروة يمكن أن تمنح الملايين فرصا للتمتع بقيم الجمال التي كانت في السابق حكراً على قلة محدودة. على أن بقاء القيم الجمالية، بعيدة عن التشويه، امر تستوجبه انانية الانسان وتقدمه، وقد يكون أمرا صعبا تذوق الشعر من خلال أجهزة الكومبيوتر والاليـاف البصريـة وغـيرهـا من التكنولوجيا المتطورة.

ولكن قد يكون أمرا جميلا انتشار القصيدة الشعرية وسائر فنون الابداع، على أدوات وقنوات الاعلام مانحة الفرصة للمواطن لكي يستوعب منها ما يشاء كل حسب قدرته ووقته.

ومن المهم بعـد ذلـك كلـه أن نفهم كما يقول «كروستوفر كودويل»: «ان الفن كالعلم ليس بدعاية. وهذا لا يعني انه ليس له من دور اجتماعي ليقوم به. على النقيض، ان دوره، كما كان، أساسي وأكثر بعدا من الدعاية: ان دوره تغيير عقول البشر ولكن بطريقة خاصة وأن طريق العلم في تغيير نظرة الانسان للحقيقة الظاهرة تكون في العرض الرياضي ولا يمكن ان يقال عن ذلك انه اقناع».

وهكذا فان الحقيقة والجمال ليسا اقناعا، وليس من ريب في أن مزيدا من تكامل العلوم في الثقافة والتعليم واستغلال التطور التكنولوجي لخدمة الأهداف والمضامين الجديدة في الفكر والفن يسهم الى حد كبير وضمن بعض الشروط في اغناء الثقافة الانسانية بصورة عامة كما انه لا ريب في أن الاصغاء الجماهيري لهذه الثقافة يعود عليها بالنفع.

المراجع:

(١) احمد أمين، فجر الاسلام، مكتبـة النهضـة المصريـة ط٧، ١٩٦٤.

(٢) عبد الاله الصائغ، صحيفة لقيط بن يعمر الايادي، مجلة الطليعة الادبية العراق، العدد الثاني ١٩٧٩.

(٣) د.زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف، ١٩٧٠.

(٤) صادق النيهوم، جريدة الحقيقة، بنغازي ١٩٧٠/١/٣١ العدد ١٣٢٠.

(٥) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل بيروت. جـ١،

(٦) البغدادي، خزانة الأدب، المطبعة السلفية جـ١، القاهرة ١٣٣٧ هـ.

(٧) د.جـلال الخيـاط، التكسب بـالشعر، دار الآداب بـيروت ١٩٧٠.

(٨) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أخبار البحتري. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. تحقيق صالح الأشتر دمشق ١٩٥٨.

(٩) د.محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، بدون تاريخ.

(١٠) د.جلال الخياط، الأدب العربي ليس مقروءاً، مجلة الآداب بيروت، العدد ٦، ١٩٧٦.

(١١) د.زكي الجابر، الشعر ووسائل الاعلام، مجلة الآداب بيروت العدد ١ - ٢ ١٩٨٢.
(١٢) أنور الجنـــدي، معـــالم الأدب العربي المعـــاصر، دار النشر للجامعيين ١٩٦٤.
(١٣) خليفة محمد التليسي، رحلة عبر الكلمات، الادارة العامة للثقافة ١٩٧٣.
(١٤) نفحة من الأدب المغربي، مجلة المغرب الجديد العدد ١٣ السنة ٢ ٢١ يونيو ١٩٣٦.
(١٥) محمد الصادق عفيفي، النقد الأدبي في المغرب العربي نشر دار الفكر ١٩٧١.
(١٦) لويس دوللو، الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، ترجمة د.عادل العوا منشورات عويدات ١٩٨٢.

الهوامش

(١) انظر على سبيل المثال، فجر الاسلام، لاحمد امين ص٥٩.
(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص١٤٧ انظر الكامل للمبرد، ١٤٩ والكامل لابن الاثير، ٢٤٤.
(٣) الاغاني طبعه السادس ١٩: ٢٧.
(٤) عبد الاله الصائغ /صحيفة لقيط بين يعمر الايادي، مجلة الطليعة الادبية، العدد الثاني ١٩٧٩ ص١٥.
(٥) المرجع السابق ص١١.
(٦) أنظر زكي المحاسني شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف ١٩٧٠.
(٧) صادق الفيهوم جريدة الحقيقة بنغازي ١٩٧٠/١/٣١ العدد ١٣٢٠ ص٣.
(٨) العمدة، جـ١، ص٨١.
(٩) البغدادي، خزانة الادب المطبعة السلفية جـ١.
(١٠) العمدة جـ١ ص٨١.
(١١) في الادب الجاهلي، ص٢٩٥.
(١٢) د.جلال الخياط، التكسب بالشعر، دار الاداب ص١٤.
(١٣) انظر، ابو بكر محمد بن يحيى الصولي، اخبار البحتري مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، تحقيق صالح الاشتر دمشق ١٩٥٨.
(١٤) الدكتور محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص٦٩.
(١٥) انظر، جلال الخياط، الادب العربي ليس مقروءاً، مجلة الآداب العدد ٦ بيروت ١٩٦٧ ص١١ وما بعدها.
(١٦) انظر مقالة الدكتور زكي الجابر: الشعر ووسائل الاعلام «مجلة الآداب العدد ١ - ٢، ١٩٨٢ ص٤٥.
(١٧) أنظر انور الجندي، معالم الأدب العربي المعاصر، دار النشر للجامعيين، ١٩٦٤، ص١٣٤.
(١٨) انظر، انور الجندي، معالم الأدب العربي المعاصر ص٦٢.
(١٩) انظر. خليفة محمد التليسي، رحلة عبر الكلمات، الادارة العامة للثقافة. ١٩٧٣، ص١٦٣.
(٢٠) نفحة من الأدب المغربي، مجلة المغرب الجديد، العدد ١٣ السنة ٢. ٢١ يونيه ص٤٥.
(٢١) انظر النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، محمد الصادق عفيفي نشر دار الفكر، ١٩٧١، ص٢١٨.
(٢٢) انظر الجندي، معالم الأدب العربي المعاصر ص١٣٥.
(٢٣) انظر لويس دوللو، الثقافة الفردية، وثقافة الجمهور، ترجمة د.عادل العوا، منشورات عويدات ص٤٨.
(٢٤) المرجع السابق ص٤٩.
(٢٥) انظر رأى (ماكلوهان) في مقالة الدكتور زكي الجابر «الشعر ووسائل الاعلام» المنشورة بمجلة الآداب البيروتية، عدد يناير، فبراير ١٩٨٢. ص٤١.
(٢٦) المرجع السابق ص٤٣.

دار الآداب تقدم

الحب له صور
ليلى العثمان
صدر حديثا

رؤوف وصفي
الحب... خارج الزمن
صدر حديثا